مجلة تمثلات/ جامعة مولود معمري تيزي وزو المجلد 07 العدد 02 السنة 2023
ص51 – ص 72 ISSN:2437-0622 EISSN 2710-8678

الحكاية الشعبيّة نمط T720 في التراث المحليّ "القبائلي" والعالميّ – دراسة أنتروبولوجية تطوريّة ورمزيّة

The folk tale T720 in the local 'kabyle'and international tradition-an anthropological, evolutionary and symbolic study

أ.د. زهية طراحة* *PR, Zahia TERAHA*

جامعة مولود معمري تيزي وزو.

مخبر التمثلات الفكرية والثقافية

zteraha@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2023/05/13 تاريخ القبول: 2023/05/29 تاريخ النشر: 2023/06/19

ملخص:

يحلّل هذا المقال حكاية شعبيّة تحمل عنوان: "أمّي ذبحتني أبي أكلني أختي جمعت عظامي". وهي حكاية مصنفة في الفهرست الدولي للحكايات الشعبيّة لـ "آرن–تومسون" ضمن نمط T720. وقد ترجمنا وقدّمنا رواياتها المختلفة من التراث الشعبي المحلي الجزائري بمنطقة القبائل، ومن التراث الشعبيّ العالمي الألمانيّ والفرنسيّ، ولاحظنا تشابها كبيرا جدّا فيما بينها. وقد حلّلنا تشابه الروايات المختلفة للحكاية نمط T720 استعانة بالنظرية الأنتروبولوجيّة التطوريّة التي يمثّلها "جيمس فريزر" وإدوارد تايلور، وبالنظريّة الأنتروبولوجيّة الرمزيّة التي يمثلها "جيلبير دوران". واستنتجنا أنّ سبب تشابه الروايات المختلفة لهذه الحكاية –من حيث موضوعها ورموزه– يرجع إلى أنّها تعالج موضوعا مقدّسا شغل الإنسان في كلّ مكان وزمان، وهو موضوع الحياة والموت والبعث: إنّها عقيدة حياة وخلود الروح.

الكلمات المفتاحية: حكاية شعبيّة، نمط، تراث محلي، تراث عالمي، أنتروبولوجيا تطوريّة.

Abstract :

This article analyzes a popular tale titled: "My Mother Killed Me, My Father Ate Me, My Sister Gathered My Bones. It is listed in the International Catalog of Folk Tales of "Aarne-Thompson" as type T720. We translated and presented its different versions of local and international folkloère, and we

*المؤلف المرسل

noticed a great resemblance between them. We have analysed the similarity of the different versions of the T720 tale using the evolutionary anthropological theory represented by "James Fraser" and "Edward Taylor", and the symbolic anthropological theory represented by Gilbert Durand. We concluded that the reason for the similarity of the different versions of this tale is due to the fact that it deals with a sacred subject which preoccupies man everywhere and at all times, which is the subject of life, of death and resurrection : It is the doctrine of the life and immortality of the soul.

***Key Words**: Folk tale, local tradition, international tradition, evolutionary anthropological*

مقدمة:

يمكن لأيّ متأمّل أن يلاحظ تشابها كبيرا بين عددٍ لا يحصى من الحكايات الشعبيّة المحليّة، والعالميّة. ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر حكاية "ذات القلنسوة الحمراء" و"بياض الثلج"، و"سندريلا"، و"الأخوان المتشابهان"، و"أمّي ذبحتني، أبي أكلني، أختي جمعت عظامي"، والقائمة مفتوحة. سنتوقّف في هذه الورقة البحثيّة عند حكاية منتشرة بمنطقة القبائل بعنوان "يَمَّا ثَزْلاَيِي بَابَا يَتشَابِي وَلْتْمَا عِيشَة ثَجْمَعْ إِغْسَانيوْ" أي "أمّي ذبحتني، أبي أكلني، أختي عائشة جمعت عظامي". وهي حكاية مصنّفة في الفهرست الدولي للحكايات الشعبيّة لـ "آرن–تومسون" ضمن نمط (أو طراز) رقم ورمز T720، وتحمل العنوان السابق ذاته: " My mother she killed me, My father he ate me". ونجدها بعناوين مختلفة في بعض المدونات الحكائيّة. تُذكر في الحكايات الفلكلوريّة الألمانيّة للأخوين قريم "Les frères Grimm"، بعنوان "شجرة العرعر" "Le genévrier ". وتُذكَر في المدونات الحكائيّة الفرنسيّة بعنوان "الطائر الأخضر" "L'Oiseau Vert"، و"طائر الحقيقة "L'Oiseau de la vérité" و"الوقواق الأبيض" "Le blanc coucou"، و"الأحذية الحمراء" "Les souliers rouges"...الخ. جعلتنا هذه الروايات المتشابهة بنقاط وثقافات العالم المختلفة أن نبحث في موضوع: "الحكاية الشعبيّة نمط T720 في التراث المحليّ والعالميّ– دراسة أنتروبولوجية تطوريّة ورمزيّة". وهو موضوع جديد، لم نعثر له إلى حدّ الآن على أيّة دراسة منجزة، خاصّة ببعديها المحليّ والعالميّ. والهدف من هذه الدراسة، علميّ بالدرجة الأولى، حيث نخضع الحكايات المتباعدة مكانيا وزمنيّا وثقافيّا للتحليل الأنتروبوجي الحديث، قصد الوصول إلى نتائج علميّة موضّحة

لعنصر التشابه. ويضاف لهذا الهدف العلميّ هدفٌ عمليٌّ متمثّل في خلق جسور التواصل بين ثقافات العالم الحديث، انطلاقا من مخيال آداب شعوبها، التي يعتقد الكثير من الباحثين والمنظرين أنّها متباينة ومختلفة.

يطرح الموضوع تساؤلا أساسيّا مفاده: ما هي أوجه التشابه من زاوية نظر أنتروبولوجيّة تطوريّة ورمزيّة، بين الروايات المحليّة والعالميّة للحكاية نمطT720؟ وما هو سبب هذا التشابه؟ تُضاف لذلك تساؤلات جانبيّة مفادها: ما معنى الحكاية "النمط" أو الحكاية الطراز؟ وما هي الروايات المتداولة محليا وعالميا للحكاية نمط T720؟ وما المقصود بالنظرية الأنتروبولوجية التطوّريّة والرمزيّة؟ للإجابة على هذه التساؤلات سنستعين أساسا ببحوثنا الإثنوغرافية حول الحكاية الشعبيّة المحليّة التي جمعناها من منطقة القبائليّة بالجزائر، وبمدونات الحكايات الشعبيّة العالميّة –الألمانيّة منها والفرنسيّة–، وبالمناهج والنظريات التي صنّفتها، ودرستها وحلّلتها من منظور أنتروبولوجي تطوّري ورمزيّ.

1. الحكاية الشعبيّة نمط T720 في التراث المحلي والعالمي

1.1. روايات الحكاية الشعبيّة نمط T720 في التراث المحلي

توجد من بين الحكايات الشعبيّة المندرجة في النمط **T720**، حكاية معروفة محليّا بمنطقة القبائل بعنوان "يَمَّا ثَزْلاَيِي، بَابَا يَتشَّابِي" أي "أمّي ذبحتني وأبي أكلني" وتذكر أيضا بعنوان أكثر دقّة "يَمَّا ثَزْلاَيِي، بَابَا يَتشَّابِي، عِيشَة وَلْتْمَا ثَجْمَعْ إِغْسَانِوْ" أي "أمّي ذبحتني، أبي أكلني، وعائشة أختي جمعت عظامي"، وقد نُقِلتْ إلى الفرنسية بهذا العنوان الأخير ذاته. وفيما يلي ذِكرٌ للنسخة الإثنوغرافيّة المسجّلة ثمّ النسخة المدوّنة المنقولة إلى الفرنسيّة.

بدءً، هذه خلاصة حكاية إثنوغرافيّة غير منشورة، وهي بحوزتنا على شريط كاسيت، سُجِّلتْ من منطقة القبائل –"سيدي عيش" ولاية "بجاية"، الجزائر– في سنة 1998. تروي الحكاية أنّه في الزمن الماضي، عاشت أسرة متكوّنة من أب وأمّ وبنت وولَد. كانت الأسرة فقيرة لا تأكل اللّحم إلاّ في المناسبات النادرة جدّا. استضاف الزوج ذات يوم ضيوفا، واشترى لحما لتطبخه زوجته. كانت الزوجة تطبخ اللّحم وتأكله من حين لأخر، فلم يبق منه شيئا. أخذها الرعب من زوجها، إذ كيف له أن يقابل ضيوفه. أعلمت ابنها وبنتها بأنّها أكلت اللّحم كلّه ولم يبق منه شيئا للضيوف، وهي الآن خائفة من

ردّ فعل زوجها. طمأنتها ابنتها، ناصحة إيّاها بأن تذبحها وتطبخ لحمها للضيوف. وأصرّ ابنها –وهو أصغر من أخته– على ألا تَذبح أخته بل تذبحه هو وتطبخ لحمه للضيوف. طلبتْ منهما الأمّ أن يقفا بعيدا عنها، وتضرب بالعظم ثمّ بالسكين، فمن أصابه العظم تركته ومن أصابه السكّين ذبحته. ضربت بالسكين فأصابت الابن ثمّ ذبحته وطبخته. وصل الضيوف في المساء، وطلب الزوج من زوجته أن تقدّم لهم الطعام، فانزعجت ورفضت أن تقوم بذلك الفعل. توجّه نحو ابنته وطلب أن تقدّم الطعام للضيوف، فرفضت هي أيضا. لم يجد الأب حلاّ فقام هو بنفسه وقدّم الطعام للضيوف.

أكل الضيوف والأب الطعام واللّحم، وأخذت الأختُ العظام وخزّنتها في التربة، وكانت في كل مرّة تسقيها بالماء، فنبتت في مكان دفن العظام شجرة رمان. نمت الشجرة وأثمرت، وأعطت حبّة رمان جميلة. فتحت ثمرة الرمّان تلك فطار منها طائر "الحمام" وأخذ يحلّق في السماء. حطّ الطائر على منزل امرأة عجوز، مردّدا بلحن حزين "أمّي ذبحتني، وأبي أكلني وأختي عائشة جمعت عظامي". سمعت العجوز غناءه المدهش فطلبت منه أن يكرّره. اشترط عليها قطعة جبن مقابل تكرار غنائه. أعطته الجبن فكرّر على مسامعها غناءه العجيب ثمّ طار بعيدا.

أحطّ الطائر على رفّ دكّانِ خياطٍ، فبدأ يغرّد ألحانه الساحرة، ممّا جعل الخيّاط يتعجّب من أمره، ويطلب منه تكرار غنائه. اشترط عليه الطائر كومة من الإبر مقابل تكرار الغناء. أعطاه الخياط كومةً من الإبر، فأعاد الطائر على مسمعه غناءه العجيب، ثمّ طار بعيدا، إلى أن أحطّ على رفّ بيتهم وبدأ يغني ويغنّي ويغني. سمعته أمّه وطلبت منه أن يكرّر الغناء الساحر فكرّره، ثمّ سمعه أبوه وطلب منه إعادة الألحان فأعادها. طلب الطائر من أبيه أن يفتح فاه، ولما استجاب، رماه بقطعة الجبن جزاءً له، ثمّ طلب من أمّه أن تفتح فاها، فرماها بالإبر عقابا لها.

ونجد هذه الحكاية مدرجة أيضا في كتاب "البذرة السحريّة" " Le grain magique" بعنوان "أمّي ذبحتني، أبي أكلني، أختي جمعت عظامي"، " Ma mère m'a égorgé mon père m'a mangé ma sœur a rassemblé mes os ". وخلاصة هذه الحكاية، أنّه في القديم حين كان اللّحم نادرا، أخبر رجل زوجته بأنّ ضيوفا سيحلّون عندهم في يوم الغد، وبالتالي سيذهب باكرا إلى السوق لشراء اللّحم لتتمكّن من تحضير طبق كسكسي الأفراح الجيّد. قصد الزوج

السوق ورجع بقطع لحم الخروف الطازجة الدّسمة. أشعلت المرأة النّار بفناء البيت وبدأت تحضّر الكسكسي باللّحم والخضار والبهارات المتنوّعة. ولما كان الطبق على وشك النضج، ذاقت قليلا منه مع قطعة من اللّحم، فوجدته لذيذا، ممّا جعلها غير مقاومة لشهيّتها، فأخذت قطعة أخرى من اللّحم، وأخرى وأخرى وأخرى، حتّى لم يبق في القدر ولو قطعة لحم صغيرة.

تذكّرت المرأة التعيسة أنّ الضيوف قادمون، ولا يوجد ما تقدّمه لهم من اللّحم. رجع ابنها "عليّ" من الحقل، فذبحته مثل حَملٍ صغير وقطّعت جسده قطعا ورمتها بسرعة في القدر. وبينما أخذت تتخلّص من أثر بقايا جسد الابن، دخلت ابنتها البكر، وهي طفلة هادئة صامتة طيّبة. فهمت الطفلة "زينة" ما حدث ولكنّها لم تنطق ببنت شفة، خائفة من أن يكون مصيرها مثل مصير أخيها، فانسحبت منعزلة في ركن البيت.

وصل الأب مع ضيوفه بعد وقت قصير، وكان الغذاء قد طبخ ورائحته قد عمّت أرجاء الحارة والبيت. أكل الجميع إلاّ الطفلة الصغيرة. اندهش الرجل من غياب ابنه الذي يحبّه كثيرا، وسأل زوجته عن سرّ غيابه، فأجابته بأنّ أهلها اشتاقوا إليه، فجاءوا وأخذوه معهم في صبيحة ذلك اليوم. واصل الأب أكله بدون قلق، ولما لم يبق من اللحم والكسكسيّ أيّ شيء، فرح الرجل، وقدّم الفواكه والقهوة لمضيفيه، ثمّ رافقهم ثانية عند رجوعهم.

أسرعت المرأة إلى جارتها، لترجع لها الغربال الذي أعارته لها، فاقتربت زينة من الطبق الخشبي الكبير الذي كان محتويا الوليمة، فوجدته فارغا الآن، ولم يعد يحتوي سوى بعض العظام الهشّة البيضاء، التي كانت الشيء الوحيد المتبقي من أخيها. جمعت الطفلة العظام بعناية، ومسحتها وفرشتها على السطح. ولما جفّت العظام جيّدا، لفّتها في قماش رقيق وخبّأتها في سريرها الصغير. وكانت كلّما ابتعد والِداها، أخذت القماش ووضعته على ركبتيها وأخذت تبكي وتبكي رفيقها الصغير، وقد كانت تكرّر ذلك كلّ يوم. ولما كانت الأخت تسكب دموعها يوميّا كالمطر على عظام أخيها، التأمتْ العظام، فقفز من القماش ذات صباح طائرٌ، أحطّ على السطح وبدأ يغني: أمّي ذبحتني، أبي أكلني، أختي جمعت عظامي. عرفت الطفلة صوت أخيها فبدأت ترتجف، وتساءلت عن ردّة فعل أبيها حين يستمع إلى

صوت ابنه الصغير، الذي مازال يبحث عنه باستمرار، ومازالت الأمّ تجيبه بأنّه عند أهلها، وأخيرا أعلمته بأنّ أمّها أخبرتها بأنّه ضاع ولم يُعثَر عليه.

وفي يوم من الأيام، حضّرت الزوجة طبقا من الكسكسيّ باللّحم والخضار، فعبّر الزوج بصوت حزين عن تذكّره لليوم الذي قلق فيه على ابنه. وفي الحين أحطّ الطائرُ على سطح البيت وأخذ بحزن يغني: أمّي ذبحتني، أبي أكلني، أختي جمعت عظامي. فهم الأب قصّة ابنه، ووقف غاضبا متّجها نحو زوجته، وفجأة أخذ الطائرُ يغني: "حذار من أن تقتلها تقتلها، أختي ستبكي ستبكي، ويتيمة ستصير ستصير. ومن ذلك الوقت لم يرجع الطائر قط على سطح البيت. وهكذا غُفِر للأمّ، وتوقّفت الطفلة الصغيرة عن الارتجاف، أمّا الأب فَقَدْ فَقَدَ إلى الأبد طعمَ الحياة.[1] وفي صفحة تاليّة لنهاية الحكاية ذُكر المثل التالي: من يعرف الحقيقة؟ الذي ضرب ومن تلقى الضرب[2]، وهو ذو علاقة وطيدة بنصّ الحكاية. وتبقى الحكاية التي جمعتها ونقلتها الكاتبة "طاووس عمروش"، مختلفة قليلا عن الحكاية التي جمعناها من الميدان، في كونها لم تشر إلى دفن الطفل أمام شجرة الرمان، وفي نهايتها التي تسامح فيها الابن مع أمّه لصالح أخته، فهو لم يعاقبها ولم ينتقم منها خوفا من يتم أخته.

وقد انتقلت الحكاية من نوع أدبي سردي ترويه النساء، إلى أغنيّة شعبيّة غناها في ستينيات القرن الماضي المغني "عثماني"، والحكاية المغناة تشبه إلى أقصى حدّ الحكايتين السابقتين، الإثنوغرافيّة والمدوّنة، والاختلاف الوحيد يكمن في المقطع الغنائي الذي جاء في الأغنيّة كالتالي: "أمّي ذبحتني، أبي سلخني، والمتطوعون أكلوا لحمي. فقد أضافت هذه الرواية الغنائيّة شخصيات "المتطوعين" إلى أحداثها، وأعفت الأب من أكل لحم ابنه، حيث قُدّمت الوليمةُ طعاما للعمال المتطوعين. فالأمّ في هذه الرواية ذبحت ابنها، والأب سلخه وقطّعه قطعا، والعمال المتطوعون أكلوا لحمه، وأخته عائشة جمعت واعتنت بعظامه، إلى أن تحوّل إلى طائر حمام. وهذه الأغنية منتشرة ومعروفة لدى الجمهور بمنطقة القبائل.

2.1. روايات الحكاية الشعبيّة نمط T720 في التراث العالمي

نجد في التراث الشعبي العالمي أهمّ حكاية تندرج في طراز T720، هي حكاية "شجرة العرعر" " Le genévrier" بالفرنسيّة، و"The Juniper Tree" بالإنجليزيّة. حكاية متداولة في التراث الحكائي الشعبي الألماني والأوروبي عامّة، وقد وردت في المجموعة الكاملة لـ"حكايات الطفولة

والمنزل" لـ "الأخوين جريم"، الألمانيّين، وهذه الحكاية لا نجد لها ذكرا في الكثير من الترجمات والمنشورات الحديثة للمجموعة ذاتها، حيث فُضِّل فيها انتقاء بعض الحكايات دون الأخرى[3] ، في حين أنّها وردت في بعض الطبعات والمجلات القديمة،[4] وفي طبعتين حديثتين واحدة بالفرنسيّة[5] وأخرى حديثة وكاملة بالإنجليزية، وفيما يلي خلاصة هذه الحكاية التي تحمل عنوان "شجرة العرعر".

يروى عن رجل غنيّ لديه زوجة جميلة صادقة وورِعَة. كان الزوجان متحابين كثيرا، غير أنّ المرأة لم تتمكّن من إنجاب ذريّة رغم صلواتها وأدعيتها. وذات يوم من أيّام الشتاء، كانت المرأة تقشّر تفاحة تحت شجرة العرعر بفناء البيت، فجرحت نفسها وتساقطت قطرات من الدّم على الثلج بسفح الشجرة. تمنّت المرأة أن تنجب طفلا أحمر كالدّم وأبيض كالثلج. مرّ الشهر الأول، فذاب الثلج، ومرّ الشهر الثاني فاخضرّ كلّ شيء، ومرّ الشهر الثالث فنبتت الأزهار، ومرّ الشهر الرابع فعادت الحياة إلى الغابة. مرّ الشهر الخامس، فإذا بالمرأة متواجدة تحت شجرة العرعر سعيدة، واقعة على ركبتيها وهي تشمّ رائحتها الزكيّة. حلّ الشهر السادس فانتفخت الثمار، وصارت المرأة صامتة، وفي الشهر السابع التقطت كلّ الثمار وأكلتها، ممّا جعلها مريضة وحزينة. حلّ الشهر الثامن فطلبت المرأة من زوجها أن يدفنها تحت شجرة العرعر في حالة موتها لتهدأ. حلّ الشهر التاسع وأنجبت فيه ولدا أبيض كالثلج وأحمر كالدّم، لكنّها في اللّحظة التي رأته، شعرت بالسعادة لدرجة الموت فماتت.

دفنها زوجها تحت شجرة العرعر، ومع مرور الوقت زال حزنه وتزوّج من امرأة أخرى. مرّ وقت قصير، أنجبت الزوجة الجديدة بنتا، وبدأت تغير على الابن البكر لزوجها، وتفكّر في كيفيّة جعل ابنتها الوريثة الوحيدة لأبيها. وسوس في نفسها الشيطان، فبدأت تعامل الصبيّ بقسوة شديدة. طلبت البنت ذات يوم من أمّها تفاحة، وكان التفاح يُحفظ في صندوق مغلق بغطاء سميك، ذي قفل حديديّ حاد. قدّمت الأمّ لابنتها أجمل تفاحة، فسألتها البنت عمّا إذا كان من الممكن أن تقدّم تفاحة أخرى لأخيها، غير أمّها انزعجت كثيرا. عاد الولد الصغير في الوقت ذاته من المدرسة، فأسرعت زوجة الأب وأخذت الفاكهة من ابنتها وأرجعتها إلى الصندوق. سيطر الشرّ على زوجة الأب فسألت الطفل الصغير إذا كان يريد تفاحة، وفتحت الصندوق ليتمكّن من اختيار واحدة، وفجأة أغلقتْ الغطاء بعنف فتقطّعت رأس الطفل الصغير وتدحرجت وسط التفّاح. استعادت المرأة الرأس ووضعت جسد الطفل

على كرسيّ أمام الباب، ووضعت الرأس على الرقبة، ولفّتها بمنديل رقبة أبيض حتى لا يظهر شيء، ثمّ وضعت تفاحة في يده.

تأتي الفتاة الصغيرة "مارلين" إلى أمّها وتقول لها أنّ أخاها جالس أمام الباب بوجه شاحب وتفاحة في يده، وأنّها طلبت منه التفاحة لكنّه لم يرد، ممّا جعلها خائفة جدّا. أمرتها أمّها، أن تطلب منه التفاحة مرّة أخرى، وإن لم يجب، فما عليها إلاّ أن تصفعه صفعة قويّة. عادت الطفلة الصغيرة وطلبت من أخيها التفاحة، ولما بقي صامتا بالطبع، قامت بما أمرتها به أمّها، فتدحرجت رأس الطفل الصغير على الأرض، فبدأت الطفلة في الصراخ.

عادت الصغيرة مارلين إلى أمّها باكيّة مخبرة إيّاها بأنّها مزّقت رأس أخيها، فنصحتها الأمّ بأن لا تخبر أحدا. حضّرت الأمّ نفسها لطبخ الطفل الصغير في المرق المتبّل والصلصة البنيّة. وبينما بدأت الأمّ تقطّع لحم الطفل الصغير قطعا صغيرة، رفضت مارلين الابتعاد وبقيت تذرف الدموع التي كانت تتساقط في القدر، وبالتالي لا ضرورة لإضافة الملح للمرق. ولما رجع الأب إلى البيت، وسأل عن مكان تواجد ابنه، وضعت زوجته أمامه قدر المرق واللّحم، وأخبرته بأنّ الطفل الصغير ذهب إلى خالته الكبرى وسيبقى هناك مدّة سبعة أسابيع. أكل الأب الطبق كلّه، ولم يرد أن يترك شيئا منه لأحد، إذْ كان يبدو له أنّ كلّ شيء له، ويجب أن يعود له. ذهبت الطفلة الصغيرة في نهاية الوجبة، بحثت عن أجمل منديل لها، وجمعت فيه كلّ العظام وما تبقى من جسد أخيها، وخرجت ووضعته تحت شجرة العرعر. بدأت الشجرة تتحرّك، وبدأ ضباب مثل نّار نازلة منها، ومن هذه النّار خرج طائر رائع أخذ يطير بعيدا إلى أن اختفى في السماء، وعادت شجرة العرعر إلى ما كانت عليه من قبل. لاحظت الصغيرة مارلين أنّ المنديل قد اختفى، وكأنّ أخاها الصغير لا يزال حيّا، ممّا جعلها خفيفة سعيدة، عادت إلى البيت وجلست إلى الطاولة لتأكل.

هبط الطائر على منزل جوهريّ، وبدأ يغنّي ويروي قصّته كاملة. كان الجوهريّ يصنع سلسلة من الذهب، وهو يستمع إلى أغنيّة الطائر الجميلة، غادر منزله فورا مندهشا فاقدا خفّه، وطلب من الطائر أن يعيد غناءه مرّة أخرى. وافق الطائر على طلب الجوهريّ لكنّه اشترط عليه أن يعطيه السلسلة الذهبيّة التي مازال يحملها في يده. كرّر الطائر غناءه، ثمّ طار بعيدا حاملا الجوهرة في مخلبه الأيمن، إلى

أن حطّ على سطح منزل إسكافيّ. أخذ الطائر في الغناء وخرج الإسكافيّ وزوجته وأطفالهما، وكذا الكاتب والخادمة والخادم ليستمعوا لغناء الطائر الساحر الجميل، ذي الريش الأحمر والأخضر، والعنق الأصفر كالذهب، والعينين اللامعتين كنجمتين. طلب الإسكافيّ من الطائر أن يعيد غناءه، غير أنّه رفض تكرير الغناء إلاّ بمقابل هديّة متمثّلة في زوجين من الأحذيّة الحمراء. أخذ الحذاءين في مخلبه الأيسر، وطار بعيدا والسلسلة الذهبيّة لا تزال في مخلبه الأيمن، إلى أن وصل إلى طاحونةٍ. وكان هناك عشرون شابّا عاملا بالطاحونة. أحطّ الطائر على شجرة الزيزفون، وشرع في المشهد الغنائيّ نفسه. وبينما كان الطائر يغني كلمات أغنيته الحزينة، توقف عمال الطاحونة واحدا تلو الأخر عن طرق عجلة الرحى، ليستمعوا إليه وهو يغني. طلب منه العمال تكرار الغناء، واشترط عليهم كهديةٍ الرحَى الحجريّة. حملها حول رقبته كالعقد، ومعه دائما السلسلة الذهبية في مخلبه والحذاءان في مخلبه الأخر، وطار عائدا إلى بيت أبيه.

وأثناء ذلك، شعر الأب فجأة بالسعادة، وكأنّه سيرى أحد معارفه القدامى، وشعرت زوجته بالخوف، وأخذت الصغيرة مارلين تبكي في ركن البيت. بدأ الطائر على شجرة العرعر يغني. شمّ الأب رائحة القرفة، فاندفع إلى خارج البيت، وإذا بالعصفور يُسقِط السلسلة الذهبيّة، حول عنق أبيه. دخل الأب إلى البيت، فأغميّ على الأمّ، وخرجت الصغيرة مارلين فتلقّتْ من العصفور حذاءين، لبستهما على الفور وبدأت ترقص وهي في غاية السعادة، ثمّ عادت إلى البيت. استعادت الأمّ رشدها وشعرت كأنّ العالم بكامله ينهار أمامها، وأخيرا قرّرت الخروج بدورها، وبمجرّد أن عبرت باب البيت، أسقط الطائر الرحى الحجريّة عليها، فتحوّلت إلى عصيدة في الحين. ولما سُمِع التحطّم القوّى، خرج الأب والفتاة من جديد، فرأيا في المكان الذي كانت به الأمّ بخارا متصاعدا متحوّلا إلى نار. ولما اختفت ألسنة اللّهب، كان الصبيّ الصغير متواجدا هناك. أخذ أباه وأخته بيديه، ودخل الثلاثة إلى البيت، وجلسوا لتناول الطعام.(6)

وتوجد رواية أخرى للحكاية "النمط" (أو "الطراز") السابقة بعنوان"طائر الوقواق الأبيض" "Le blanc Coucou". تتحدّث الحكاية عن رجل حطاب وزوجته، وكان لديهما ولدان: طفل وطفلة. كانت الأمّ سعلاة (غولة)، وفي يوم من الأيام طلبت منهما الذهاب إلى الغابة للاحتطاب،

ووعدتهما بأن تقدّم تفاحة حمراء لمن أتى منهما بحزمة حطب كبيرة. ذهب الطفلان معا، ولما وصلا إلى الغابة ربط الأخُ أختَه إلى جذع شجرة، وجمع أجمل الأغصان، وربطها في حزمة رائعة. وفكّ ربط أخته وحمل حزمة الحطب ورجع إلى البيت. رأته أمّه وقد وصل مع حزمة كبيرة من الحطب، فأكّدت له بأنّه هو الذي جمع كميّة من الحطب أكثر من أخته، وبالتالي دعته ليختار حبّة من التفاح الأحمر المتواجد بالصندوق الخشبيّ. ولما مدّ رقبته وانحنى ليختار أجمل تفاحة، تركت أمّه الغطاء ليسقط، فسقط على رأسه التي تدحرجت إلى داخل الصندوق.

أخذت الأمّ الرأس والجسد ووضعتهما يُطبخان في القدر. ولما وصلت الطفلة بدورها، طلبت منها الأمّ بأن تنفخ في النّار، وحذّرتها من النظر إلى داخل القدر. لم تتجرّأ الطفلة على النظر إلى داخل القدر لكنّها رأت يدا تطفو على سطح ماء القدر، فهربت مرعوبة. سألتها أمّها عمّا جرى لها لتبكي بشدّة، أَ لأنّها نظرتْ إلى داخل القدر؟ ردّت عليها الطفلة بأنّها لم تنظر قط إلى داخل القدر، ولكنّها تبكي بسبب حروق أصابتها. طلبت منها الأمّ مرّة أخرى بأن ترجع وتنفخ في النّار، وحذّرتها من أن تنظر إلى داخل القدر. رجعت الطفلة أمام النّار، فرأت رِجْلاً تطفو عل سطح ماء (مرق) القدر، فأصبتها رهبة شديدة وهربت باكيّة مثل المرّة الأولى. وبّختها والدتها ووصفتها بالبنت الفضوليّة وسألتها فيما إذا كانت قد نظرت لداخل القدر. أجابت الفتاة أمّها بأنّها تبكي بسبب إصابة في رجلها حين سقوطها. طلبت الأمّ من ابنتها أن ترجع لتنفخ في النّار وحذّرتها من النظر إلى داخل القدر. ذهبت الفتاة أمام النّار، ورأت هذه المرّة رأس أخيها تطفو على ماء القدر وهربت مذعورة باكية. سألتها أمّها عن سبب ذعرها وبكائها، فأجابتها بأنّها ضربت برأسها إلى الحائط. ولما حان وقت الغذاء، قطّعت الأمّ جسد الطفل المطبوخ، وطلبت من ابنتها أن تأخذ العظام وتضعها على الصخرة المتواجدة أمام البيت. أطاعت الطفلة أمّها، فجمعت عظام أخيها الصغيرة ووضعتها على الصخرة.

جلس الأب والبنت في اليوم التالي أمام الصخرة، ورأيا طائر الوقواق يغني: كوكو أمّي قتلتني، كوكو أبي أكلني، كوكو أختي جمعت عظامي، كوكو أعط قماشا جميلا لأختي، كوكو أسقط حجرا كبيرا على رأس أمّي، كوكو أعط الدراهم لأبي كوكو.(7)

يمكننا أن نلاحظ للوهلة الأولى، أنّ للحكاية طراز T720، روايات متعدّدة، لكن رغم تعدّدها فهي ذات عناصر كثيرة متشابهة، سواء تعلّق الأمر بشخصياتها البشرية والحيوانيّة والنباتيّة أو موضوعها وأحداثها وبنيتها، وسنتناول بالتحليل التشابهات السطحيّة والعميقة في العنصرين الفرعيين من العنصر الأساسي التالي.

2. دراسة أنتروبولوجيّة للروايات المحليّة والعالميّة للحكاية طراز T720

2 . 1. أنتروبولوجيا الأضحيّة البشريّة في الروايات المحليّة والعالميّة للحكاية طراز T720.

تنتشر كثير ظاهرة أكل لحم البشر" أي " Le cannibalisme" في نوع من الحكايات الشعبيّة، وهو النوع المعروف بالحكاية الخرافيّة العجيبة الذي تنتمي إليه حكايات موضوع الدراسة في هذا المقال. إنّه النّوع الّذي يعتبره "فلاديمير بروب Vladimir Propp" خرافات بالمعنى الدّقيق للكلمة، وتكون فيه دراسة الأشكال وإقامة القوانين المسيّرة للبنية ممكنة، بنفس دقّة مورفولوجيا التّشكّلات العضويّة[8]. وهي تلك المصنّفة في فهرست الحكايات الدولي لـ "آنتي آرن Anti Aarne " و"طمسون Thompson" من رقم 300 إلى 749 [9]. وقد سبق للمنهج الفنلندي أو ما يعرف بالمدرسة التاريخية الجغرافية –التي من أعلامها "كرون" و"آرن" و"تومسون"، أن صنّف هذا النوع من الحكايات في الفهرست الدوليّ الخاص بالحكايات الشعبيّة. وتعتبر المدرسة التاريخيّة الجغرافيّة The Historic Geographic School في كون منهجها انطلق من دراسة الحكايات الشعبيّة الأوروبيّة، ومواد الفلكلور. وأكّد أصحابها على ظاهرة انتشار الحكايات الشعبيّة، وركزوا على أهميّة الحصول على صوّر عديدة للحكاية الواحدة. فهم يذهبون إلى أنّ لكلّ حكاية، من الفلكلور تاريخها الخاصّ، ويجب دراستها مستقلّة عن غيرها.[10]

فبعد أن أسس "كارل كرون" المدرسة التاريخية الجغرافية، قام "أنتي آرن" Antti AARNE بإتمام العمل وذلك بأخذه لحكاية شعبية معيّنة وحشده لها بمادة غزيرة، وبمعاونة بعض الباحثين توصل إلى فكرة تصنيف الحكايات الشعبيّة على أساس علميّ إحصائيّ، محتوٍ لجميع الحكايات المشهورة في التراث الأوروبي وأعطى لكلّ نمط أو طراز من الحكايات رقما خاصّا به، حتّى يُهتدَى إليه

بسهولة. وجاء بعده "ستيث طومسون" فتوسّع في التّصنيف، ليضم جميع الحكايات الشعبيّة الفنلنديّة والآسيويّة وغيرها. وكان "آرن" أوّل من أظهر بالتّفصيل أنّ نظرية بِنْفِي في الأصول الهنديّة للحكايات الشعبيّة صحيحة، وعلى يده صار لنشأة الحكايات الشعبيّة عصر تاريخيّ محدّد بعد أن كان الشّائع أنّها نشأت في عصر قديم موغل في القدم لا يمكن تحديده. (يونس، د.ت). وهكذا صُنّفَت الحكاية موضوع الدراسة تحت رمز ورقم وعنوان: الحكاية طراز T720 "أمّي ذبحتني أبي أكلني أختي جمعت عظامي".[11]

فأفضل دراسة للحكاية يجب أن تبدأ بجمع المادة وتصنيفها، يقول "كراب" في هذا الصدد: «إذا كان منهج "كرون" التاريخي الجغرافي لا يمكن الاستغناء عنه في تتبّع انتشار المادة الفولكلوريّة، فإنّ المنهج المقارن منهج مانهاردت "Mannhardt" و"فريزر" خير طريقة للبحث عن الأصول.»[12] ونحن سنعتمد في تحليلنا للتشابه بين الروايات المختلفة للحكاية طراز 720 على النظريّة الأنتروبولوجيّة التطوريّة التي اشتغل عليها كثيرا "جيمس فريزر" في دراسته لأصل وتطوّر الظاهرة الدينيّة، خاصّة وأنّه حلّلها اعتمادا بدرجة أساسيّة على الأساطير التي تشبه إلى حدّ ما "الحكاية الخرافيّة العجيبة".

يفسر المنهج التاريخي الجغرافي تشابه الحكايات، بأصلها الواحد وانتشارها بعد ذلك، ويفسّر المنهج البنيوي الشكلي تشابهها في بنيتها "السطحيّة" الموحّدة، وتفسر النظرية الأنتروبولوجية التطورية تشابهها انطلاقا من كونها تنتمي إلى مؤسسات اجتماعية ودينية تطوّرت بالطريقة ذاتها عبر التاريخ وما قبله. ولهذا فهي تبحث في الرواسب الغابرة بين سطورها. ولفهم المراحل التطوّرية التي مرّت بها المجتمعات البشريّة، من الماضي البعيد إلى الحاضر القريب، يوضح "لويس مورجان" "Lewis H. Morgane" مراحل وحقب التطوّر هذه مصنّفة كالتالي: المرحلة الهمجيّة "Stade de l'état sauvage "، التي تنقسم إلى: الحقبة الهمجيّة الدنيا Stade inférieur de l'état sauvage ، والحقبة الهمجيّة الوسطى Stade moyen de l'état sauvage والحقبة الهمجيّة العليا Stade supérieur de l'état sauvage. تليها المرحلة البربريّة "Stade de la barbarie" المنقسمة إلى: الحقبة البربريّة الدنيا Stade inférieur de la barbarie ، والحقبة البربريّة الوسطى Stade moyen de la barbarie ، والحقبة البربريّة العليا Stade supérieur

de la barbarie. تليها مرحلة الحضارة " Stade de la civilisation"، التي ترتبط بالكتابة وبالتالي بالتاريخ.[13] وهو يعتقد بأنّ تطوّر المجتمعات كانت أحاديّة الخط، أي تطوّرت بالطريقة نفسها حسب المراحل المذكورة سابقا.

وإذ كان "مورجان" قد درس تطوّر المجتمعات، فـ"إدوارد تيلور" يؤمن بأنّ المسارات الثقافيّة للشعوب لم يكن لها أن تتكرّر أينما كان على وجه واحد عبر حركة أحادية الخطّ، وقد اشتهر بالأنتروبولوجيا الدينيّة، خاصّة نظريّته حول الإحيائيّة، التي كانت برأيه نقطة الانطلاق لتطوّر المعتقدات الدينيّة، إلى أن وصلت إلى مرحلة التوحيد.[14] ونجد إلى جانب "تيلور" تلميذه "جيمس فريزر" الذي طوّر بحوثه في دراسة الظاهرة الدينيّة وتطوّرها من مرحلة السحر إلى مرحلة الدين وصولا إلى مرحلة العلم.[15]

إنّ الشيء الذي يثير الانتباه في الحكاية نمط T720 هو ظاهرة ذبح وقتل وطبخ وأكل لحم البشر وبصفة خاصّة لحم الابن الذكر، وبصفة أخصّ الذكر البكر. فما هي دلالة هذا السلوك؟ لكي نفهمه يجب الاستعانة بالنصوص القديمة المدوّنة، وكذا بحياة المجتمعات البدائيّة الحديثة. فالأنتروبولوجيون التطوّريون الأوروبيون يذهبون إلى أنّ بشر المجتمعات الغابرة تحوّلوا من مرحلة التوحش إلى المرحلة البدائيّة وبالتالي تعتبر ثقافتهم صورة عن ماضي المجتمعات المتحضّرة، ولهذا كانوا يبحثون عن تفسير مقارن لمختلف المراحل التي مرّت بها البشرية من مجتمعات بسيطة إلى مجتمعات مركّبة، وهم يؤمنون بتوحّد النفسيّة البشريّة.[16] وبالتالي أمنوا بالتطوّر ذي الخط الأحادي للشعوب.

فإذا تأملنا ظاهرة قتل الابن في الروايات المحليّة والعالميّة للحكاية طراز T720، نجدها بنفس الدقّة في تشابهها. كما نجد لهذه الظاهرة وجودا متكرّرا في نصوص أسطوريّة ودينية ترجع إلى العصور التاريخيّة غير البعيدة. ومن هذه النصوص والأخبار ما ذُكر في كتاب "الغصن الذهبي"، حيث يقدّم لنا "جيمس فريزر" أمثلة كثيرة، عمّا يسميه بعقيدة التضحيّة بابن الملك –أو ما يمكن تسميته بالضحية البديلة– بمعنى ذبح الابن بدل من ذبح الملك، فكيف ذلك؟ يوضّح "فريزر" هذه الفكرة، مشيرا إلى عادة التضحية بالملوك حين كبرهم أو مرضهم، والتي استبدلت بالتضحية بغيرهم أو أبنائهم وقد قدّم أمثلة كثيرة جدّا لملوك ضحوا بأبنائهم بدل التضحية بأنفسهم، ويصف تلك التضحيات بالعنيفة، لأنّها

تتمّ عن طريق الذبح والشنق وأكل أجزاء من الميّت المضحى به.[17] إنّه موت بالتبديل أو بالوكالة إن صحّ هذا التعبير.

ويعلّق "رينيه جيرار" على فكرة الذبيحة Le sacrifice في العديد من الأعمال الطقسيّة Rituels، على أنّها ذات وجهين نقيضين، فتارة هي شيء بالغ القدسيّة لا يسلم من أعرض عنه من تهمة التهاون الخطير، وطورا هي ضرب من الإجرام يجازف مرتكبه بالتورّط في مسالك لا تقلّ عن التهاون خطورة. فللذبيحة طابع شرعي وغير شرعي، علني وشبه خفيّ، فقتل الضحيّة ضرب من الإجرام لأنّها مقدّسة، وهي لا تكون مقدّسة ما لم تُقتل. فهنا يظهر تجاذب ضديّ للضحيّة.[18]

نستنتج ممّا سبق بأن الحكاية نمط T720 المحلية منها والعالميّة، تحمل في عمقها رواسب المعتقدات الدينيّة القديمة المتمثّلة في تجسّد الإلهي في البشري، والتضحيّة بالملك "الإله" كقربان من أجل المنفعة العامةّ، وكذا تبديل الضحيّة الملك الأب بالضحيّة الابن، ففي الحكاية موضوع الدراسة يمكننا تفسير فعل قتل الطفل، كفعل مقدّس متمثّل في تقديم القربان للقوى العليا، فالطفل قدّم كأضحية بديلة عن الأب الذي أكل لحمه واستمرّ في الحياة. ومع مرور الأزمنة وتغيّر وتطوّر المعتقدات الدينيّة استبدلت الضحيّة البشريّة بالضحية الحيوانيّة، ويُختار لذلك حيوانات مميّزة ذات دلالة رمزية خاصّة ومنها الكبش والتيس، وبعض الطيور. وغالبا ما يطلق على هذه الذبائح المتصفة بالقدسيّة المقدّسة "كبش المحرقة".

يشير "برانس" (Prince) في فصل بعنوان "كبش المحرقة عند البابليين" Le Bouc émissaire chez les babyloniens»، إلى الحديث عن "التيس" أو حيوان من نفس النوع وهو "الكبش"، الذي استخدم عند البابليين القدماء، كأضحية وقربان. ويقدّم أمثلة منها ما جاء بوضوح في نقش من النقوش، عن فكرة انتقال المرض من المريض إلى هذه الحيوانات، عن طريق الاتصال المباشر، وذلك في الصيغة: "خذ التيس الذي يخفف الألم ؛ ضع رأسه على رأس المريض ؛ بجانب الملك ، ابن إلهه (أي المريض)، اطرده بعيدًا ؛ ليكن ريقه في فمه طليقًا ؛ ليكن الملك طاهرًا ؛ ليكن بصحة جيدة".[19] نلاحظ هنا للوهلة الأولى طقس التطهير عن طريق القربان المتمثّل في الأضحيّة الحيوانيّة.

ويأتي "برانس" بمثال آخر ممّا جاء في أسفار موسى الخمسة، أنّه في يوم الكفارة، أُمر هارون، رئيس الكهنة بدخول الحرم حيث كان عليه، بعد أداء طقوس التطهير، أن يرتدي الثياب المقدسة. ثمّ

اختير تيسان كذبيحةٍ للخطيئة، وعجل وكبش للمحرقة. وُضِع التيسان أمام الربّ (يهوه) عند باب بيت القربان. سحب هارون القرعة على التيسين ليكون أحدهما للربّ والآخر للجنّ عزازيل. ذبح التيس الذي سقطت عليه قرعة الربّ على الفور كذبيحةٍ للخطيئةِ وذبح معه أيضا العجل والكبش. بعد ذلك وضع رئيس الكهنة يديه على رأس التيس الحيّ، وأقرّتْ عليه جميع ذنوب إسرائيل، التي انتقلت بهذه الطريقة إلى الحيوان. قاد "رجل جليّ" التيس إلى الصحراء حيث تمّ التخلي عنه هناك للجنّ عزازيل.[20] يجب أن نلاحظ أن رئيس الكهنة والشخص الذي أحضر الحيوان كان عليهما أن يطهرا نفسيهما بعد هذه الطقوس المنقولة.

ويدعّم "برانس" نظرية كبش المحرقة والقربان البديل، بنصّ شعريّ بابليّ قديم مكتشف منقوش على لوح من الطين المطبوخ.[21] نفهم ممّا سبق انتشار ظاهرة وعقيدة وطقوس الذبيحة الحيوانيّة، وتفسّر من وجهة نظر الأنتروبولوجيا التطوريّة على أنّها مرحلة دينيّة، جاءت بعد مرحلة الذبيحة البشريّة التي كانت أقدم منها، وحلّت محلّها، فصارت الذبائح والقرابين من النوع الحيوانيّ بدل الإنسانيّ، وبالتالي سميت تلك الطقوس بطقوس النقل أو التحويل أو التبديل.

وعن فكرة قيام الذبيحة الطقسيّة على الإبدال، بمعنى احتمال كون الذبيحة الطقسيّة قائمة على إبدال معاكس، هدفه تقديم الذبائح الحيوانيّة لصرف العنف عن بعض الكائنات التي نعمل على حمايتها باتجاه كائنات أخرى يكون موتها أقل أهميّة أو لا أهميّة له، على الإطلاق. هناك من يلاحظ أنّ للضحايا الحيوانيّة مسحة إنسانيّة، على الدوام، كما لو أنّ المزيد من خداع العنف هو المقصود.[22]

2 . 2 . أنتروبولوجيا الإحيائيّة والبعث في الروايات المحليّة والعالميّة للحكاية طراز T720.

تقدّم لنا الحكاية نمطT720 ، حدث موت الابن البكر "الذكر"، الذي حلّلناه على أساس أنّه من رواسب عقيدة الأضحيّة والقربان المقدّمة للقوى العليا، فلننظر في كيفيّة تفسير دفن عظامه ورجوعه إلى الحياة في هيئة أخرى والمتمثّلة في طائر الحمام تارة وفي طائر الوقواق تارة أخر وفي طائر دون تحديد نوعه حينا. يمثّل تبديل القرابين البشرية بالحيوانيّة، تقديسا للحيوان المضحّى به، ولهذا يحتفظ بعظام هذه الحيوانات المقدّسة وتدفن بطرق خاصّة، اعتقادا بأنّها ستنبعث في كائن حيّ بعد ذلك. وقد

نتساءل لماذا تحوّل الطفل المذبوح إلى طائر في الحكاية المحليّة وفي الحكايات العالمة؟ قد يرجع ذلك لكون الحيوانات والطيور بصفة أخصّ عوّضت الذبيحة الإلهية والإنسانية، وقد أشار "برانس" في هذا الصدد، أنه قد لوحظ أيضا استخدام مماثل لطقس القربان الحيواني البديل –السابق– مع الطيور، وذلك عندما يتعلق الأمر بتطهير مريض الجذام. فإذا اختفت البثور الجذامية من المريض، يأخذ الكاهن طائرين، واحد يقتل وتسكب دماؤه في إناء بأعالي المياه الجاريّة. ويتمّ بعد ذلك رشّ المريض بدم الطائر المقتول، أمّا الطائر الحيّ، فيُغطس في دم الطائر المقتول، فيصاب بالمرض، ثمّ يطلق حرّا خارج المدينة، عبر الحقول".[23]

والملاحظ أنّ بعض الطيور في المعتقدات الشعبية بمنطقة القبائل ترتبط بالأولياء الصالحين، ومن هذه الطيور: الباز والحمام. وتمثيل الروح وعودتها في هيئة طائر نجدها منتشرة في ثقافات الشعوب التقليديّة جلّها. والروايات المختلفة للحكاية نمط T720 توضّح بصفة أدق فكرة التحوّل بعد الموت من هيئة بشريّة إلى هيئة حيوانية مجسّدة في طائر "الحمام" تارة وفي طائر "الوقواق" تارة أخرى، وفي الطائر عامّة في أغلب الأحيان. ففكرة الانبعاث في هيئة أخرى بعد الموت راسب من رواسب الإحيائيّة، و"الإحيائيّة" حسب إ"دوارد تايلور" هي أوّل ديانة عرفها البشر. وقد وافقه كثيرون في ذلك. وتمثّل "الإحيائية" مصدرا من مصادر الكثير من الأديان، إذ نجدها في الميثولوجيا والأديان المصريّة القديمة، ففكرة احتفاظ الأخت بعظام أو قِطَع جسد الأخ المقتول والممزّق نجدها في روايات تذكر بأنّ إسيس وضعت أعضاء أوسيريس المقطّعة في غربال حنطة... وهي بقايا أضحيّة بشريّة لتمثيل روح الحنطة وتوزيع أجزائها أو بعثرت رمادها في الحقول بغية تخصيبها. في أوروبا المعاصرة يقومون أحيانا بتمزيق مجسّم الموت ويدفنون أجزاءه في الأرض ليجعلوا الحنطة تنمو بشكل جيّد، كما تعامل الأضاحي البشريّة في أنحاء أخرى من العالم بالطريقة ذاتها. وما ذلك إلاّ استمراريّة لبقايا رموز المعتقدات الدينيّة الإحيائيّة الغابرة التي تأبى الموت.

والملاحظ أنّ للشجرة دور كبير في فكرة انبعاث الابن المقتول في هيئة طائر، ففي الحكاية القبائليّة انبثقت شجرة رمان من قبر عظام الطفل، ومن ثمرتها المنشقة خرج طائر الحمام الذي يمثّل انبعاث الطفل فيه. وفي الحكاية الألمانية أيضا، فبسبب شجرة العرعر –التي أخرجت ضبابا في شكل

نار– انبعث الطفل في هيئة طائر. وفكرة التحوّل إلى نبات ثمّ طائر، أو إلى نبات فقط عقيدة منتشرة في كثير من الثقافات. فيروى عن أدونيس أنّه لقي مصرعه على يد خنزير بريّ في الجبال، فنبتت من دمه المسفوح شقائق النعمان، وقصّة وفاة هذا الإله وبعثه ترمز إلى ذبول النبات في فصل الخريف، وازدهاره في فصل الربيع، وهي عقيدة تتردّد في كلّ مكان من غرب آسيا إلى مناطق البحر المتوسط، ثمّ انتشرت في بلاد أوروبا حتّى بلغت الجزر البريطانيّة. وبالتالي يعتبر أهم شيء في الإحيائيّة هي تكريس فكرة الحياة والموت والانبعاث في الإنسان والحيوان والنبات. ولما كانت الأشجار تعيش طويلا وبعضها ينتفع بثمارها وتستعمل رموزها، نجد توظيف الأشجار كرمز للتجدّد والانبعاث في الحكايات السابقة. فشجرة العرعر (Juniperus communis) التي هي من عائلة Cupressinaceae، عبارة عن شجرة كثيفة ومنتشرة في كثير من الأماكن، ولكنها في مناطق معينة تأخذ شكلًا متماسكًا وترتفع من 4 إلى 5 أمتار. أوراقها شائكة، وثمرتها عبارة عن توت كاذب يحتوي على 3 بذور. لونه أسود يميل إلى الزرقة. وأشجار العرعر شائعة في الغابات والأراضي البور، ويستخدم خشبها الأبيض المصفر المضغوط الناعم كأدوات لصنع بعض الأشياء البسيطة، مثل العصي والملاعق وما إلى ذلك ... تستخدم فاكهة العرعر، ذات النكهة العطرية، بواسطة المقطرات لصنع العديد من المشروبات الكحولية. وتسمّى تلك المشروبات المفضّلة والمشهورة منها باسم "جِنّ "Gin " أو "جرينييفر"grenièvre" فاكهة العرعر. يُطلق هذا الاسم أيضًا في بلجيكا وهولندا على شراب مسكر وبنكهة نقيّة[24]، فهي ذات منافع خاصّة، ومنتشرة على مستوى الأورو متوسط في بعض الأحيان هي الفربيون (تركيا) أو ألدرز (كورسيكا وكالابريا). ونجد في منطقة الأورو–متوسطيّة بشكل أساسي العرعر الشجري، ونعثر على العرعر الضخم في المغرب العربي والعرعر المرتفع في الشرق الأدنى. هذه الأنواع من الأشجار هي بقايا تكوينات أكثر اتساعًا خلال الفترات الجليدية، وهي في بيئتها الباردة وباردة للغاية استطاعت مواجهة تأثيرات الاحترار والتأثيرات البشرية لعصر الهولوسين... تنمو أشجار العرعر بجبال الأطلس بعلو من 1600 إلى 2800 م، وبالأوراس بين 1600 إلى 1800م.[25] نستنتج من هذا أنّ شجرة العرعر، تنمو بتربة ومناخ وعلوّ خاصّ. ولهذا جاء ذكرها في الرواية الألمانيّة للحكاية نمط T720.

وقد ذكرت شجرة الرمان كبديل لشجرة العرعر وهي في المسيحيّة صورة للكنيسة، فكما أن الرمان يحتوي تحت لحاء واحد على عدد كبير من الحبوب، هكذا توحد الكنيسة في عقيدة واحدة لمختلف الشعوب...لا تزال الوحدة أو الاتحاد، بمزاياهما، الفكرة الأكثر شيوعًا التي تثيرها هذه الفاكهة خلال عصر النهضة،[26] فالرمز هو تمثيل شيء ما بشيء آخر، وغالبًا ما يكون كيانًا غير مادي من خلال شخصية مستعارة من العالم المادي: الولاء لكلب، والعدالة من قبل امرأة تحمل سيفًا وميزانًا. عندما تجد الفكرة تعبيرًا في تكوين شخصيات مختلفة ، فإننا نطلق عليها اسم رمزي. لقد فقد معنى بعض السمات وحتى المزيد من الرموز التي استخدمها عصر النهضة.[27]

عندنا لغز شعبي بمنطقة القبائل: "أَلْقَدِّيسْ أَنَشْتْ نَالبُونْيَا، أَرَّاوِيسْ عَدَّانْ مِيَّه،" أي "حجمها بحجم قبضة كفٍّ، وأبناؤها تجاوزوا المائة"، والحل هو "ثَرَمَّنْتْ" أي "حبّة رمان". وهو دليل عن قوّة خصوبة وتكاثر الكائن الصغير جدّا. هنا تكمن رمزيّة الرمان المتمثّلة في الخصب والتكاثر والتجدّد.

3. خاتمة:

نخلص في نهاية هذا المقال إلى أنّ الحكاية الشعبيّة نمط T720، تنتمي إلى ما يسمى بالحكاية الخرافيّة العجيبة، وهي متداولة في كلّ ثقافات العالم، ومتشابهة إلى أقصى حدّ من حيث بنيتها الشكلية المتمثلة في طريقة ترتيب أجزائها (وظائفها)، ومن حيث اعتمادها على روايات ومنوّعات لا تحصى، مما اضطر المدرسة التاريخية الجغرافية أن تخصص لها وللأنواع الحكائية الأخرى فهرستا دوليا خاصّا. كما أنّها متشابهة في مواضيعها وبنيتها العميقة التي تخبئ رموز المعتقدات الدينية الغابرة كالإحيائيّة، التي تؤمن بفكرة الروح وخلودها عن طريق الانبعاث والتجدّد والتحوّل. وجعلنا اعتمادنا على النظرية الأنتروبولوجيّة في تحليل الحكاية النمط، أن نستخلص رواسب معتقدات الأضحية المرتبطة بالعقيدة الإحيائيّة. وجعلتنا استعانتنا بالنظريّة الأنتروبولوجيّة الرمزيّة أن نوضّح رمزيّة الحيوانات والأشجار ذات الدلالات المعتبرة وحتّى المقدّسة، ومنها طائر الحمام، وشجرة الرمان والعرعر وثمارهما الرامزة للتجدّد والخصوبة.

ونأمل أن تكون هناك دراسات عدّة تشتغل على النظريات والمناهج المقارنة، قصد مقاربة النصوص الحكائية المحلية والعالمية، لاستخلاص التباين منها والتشابه بصفة أخص، وهذا من أجل العمل

والمشاركة في بناء ثقافة عالميّة غير مقصية لإبداعات الشعوب والثقافات قاطبة. كما نسعى إلى تجديد الحكايات لتتماشى مع حداثة الحاضر.

4. الهوامش:

1 -Amrouche, T. (1996). Le grain magique: Contes, Poèmes et proverbes berbères de Kabylie. Paris: La Découverte.pp. 107-109.

2 - Amrouche, T. (1996). Le grain magique .p. 110.

3 - Grimm. (1976). Contes, Choix. (M. Robert, Trad.) Paris: Gallimard.

4 - F.B. (1861). Quatre contes extraits du recueil des Frères Grimm. (M. C. A.Nefftzer, Éd.) Revue Germanique , Tomme Teizième, pp. 566-575.

5 - Grimm. (2021). Conte de Grimm. (C. D. Hallépée, Éd., & D. Hallépée, Trad.) Paris. Pp. 55-67.

6 - Grimm, J., & Gimm, W. (2007). The Complete Fairy Tales of the Brothers Grimm. Great Britain: Wordsworth Edition. Pp 271-280.

7 - Jacob, C. (1903, Janvier). La tradition dans les Alpes: Le blan Coucou. (A. l. Mondes, Éd.) La tradition , XVIIème (1 fr), p. 97.98.

8 – فلاديمير بروب. (1986). مورفولوجيا الخرافة (الإصدار الطبعة الأولى). (إبراهيم الخطيب، المترجمون) الرباط، المغرب: الشركة المغربيّة للناشرين المتحدين، ص 17.

9 – فلاديمير بروب. (1986). مورفولوجيا الخرافة، ص 33.

10 – فوزي العنتيل. (1965). الفولكلور ما هو؟ (الإصدار د.ط). القاهرة، مصر: دار المعارف، ص 72.

11 - Antti, Aarne, The Types of the folktalle, Aclassification and Bibliography, Traslated and enk larged by Stith Thompson.) 2nd revision .(Helsinki: Helsinki Academia Scientiarum Fennicai.

12 – فوزي العنتيل. (1965). الفولكلور ما هو؟ (الإصدار د.ط). القاهرة، مصر: دار المعارف، ص 74.

13 - Morgan, L. H. (1985). La société archaique. (H. JAOUICHE, Trad.) Paris: Anthropos. Pp. 1-18.

14 – جاك لومبار. (1997). مدخل إلى الاثنولوجيا (الإصدار الطبعة الأولى). (حسن قبيسي، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، ص 74-77.

15 – جاك لومبار. (1997). مدخل إلى الاثنولوجيا، ص 79.

16 - Bonte, P., & Izard, M. (2010). Dictionnaire de l'ethnologie et de l'anthropologie (éd. 4ème). Paris: PUF. Pp. 271 .

[17] – جيمس جورج فرايزر. (2014). الغصن الذهبي: دراسة في السحر والدين. (الطبعة الأولى، المحرر، و نايف الخوص، المترجمون) دمشق: دار الفرقد. ص 347-367.

[18] – رينيه جيرار. (2009). العنف والمقدّس. ترجمة سميرة ريشا. بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة. ص 17.

[19] - *Prince, J. D. (1903, Juillet-Août). Le bouc émissaire chez les babyloniens. Journal Asiatique , 134-143.*

[20] -Prince, J. D. (1903, Juillet-Août). Le bouc émissaire chez les babyloniens. P.135.

[21] - Prince, J. D. (1903, Juillet-Août). Le bouc émissaire chez les babyloniens. P.137-143.

[22] – رينيه جيرار. (2009). العنف والمقدّس. ص 20.

[23] - *Prince, J. D. (1903, Juillet-Août). Le bouc émissaire chez les babyloniens. P. 135.*

[24] - *Barral, J. A., & Sagnier, H. (1889). Dictionnaire d'agriculture, encyclopédie agricole complète (Vol. Tome Troisième, G-O). Paris: Librairie Hachette. Pp. 40,41.*

[25] -*Tassin, C. (2012). Paysages végétaux du domaine méditérranéen. Marseille: IRD Editions. Pp. 307, 308.*

[26] - *Tervarent, G. D. (1997). Atributs et symboles dans l'art profane-Dictionnaire d'un langage perdu (1450-1600). Genève: Librairie Droz S.A. p. 7.*

[27] - Tervarent, G. D. (1997). Atributs et symboles dans l'art profane-Dictionnaire d'un langage perdu (1450-1600).p. 7.

قائمة المصادر والمراجع:

1. جاك لومبار. (1997). مدخل إلى الاثنولوجيا (الطبعة الأولى). ترجمة حسن قبيسي، الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
2. جيمس جورج فرايزر. (2014). الغصن الذهبي: دراسة في السحر والدين. (الطبعة الأولى)، ترجمة نايف الخوص، دمشق: دار الفرقد.
3. رينيه جيرار. (2009). العنف والمقدّس. ترجمة سميرة ريشا. بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
4. فلاديمير بروب. (1986). مورفولوجيا الخرافة (الطبعة الأولى). ترجمة إبراهيم الخطيب، الرباط، المغرب: الشركة المغربيّة للناشرين المتحدين.
5. فوزي العنتيل. (1965). الفولكلور ما هو؟ القاهرة، مصر: دار المعارف.

المراجع باللغة الأجنبية:

1. Amrouche, T. (1996). Le grain magique: Contes, Poèmes et proverbes berbères de Kabylie. Paris: La Découverte.
2. Antti, Aarne, The Types of the folktalle, Aclassification and Bibliography, Traslated and enk larged by Stith Thompson 2nd revision .(Helsinki: Helsinki Academia Scientiarum Fennicai.
3. Barral, J. A., & Sagnier, H. (1889). Dictionnaire d'agriculture, encyclopédie agricole complète (Vol. Tome Troisième, G-O). Paris: Librairie Hachette.
4. Bonte, P., & Izard, M. (2010). Dictionnaire de l'ethnologie et de l'anthropologie (éd. 4ème). Paris: PUF.
5. F.B. (1861). Quatre contes extraits du recueil des Frères Grimm. (M. C. A.Nefftzer, Éd.) Revue Germanique , Tomme Teizième.
6. Grimm, J., & Gimm, W. (2007). The Complete Fairy Tales of the Brothers Grimm. Great Britain: Wordsworth Edition.
7. Grimm. (1976). Contes, Choix. (M. Robert, Trad.) Paris: Gallimard.
8. Grimm. (2021). Conte de Grimm. (C. D. Hallépée, Éd., & D. Hallépée, Trad.) Paris.
9. Haase, D. (2008). The Greenwood Encyclopedia of Folktales & Fairy Tales (éd. First, Vol. 1: A-F). (D. Haase, Éd.) London: Greenwood Press.
10. Jacob, C. (1903, Janvier). La tradition dans les Alpes: Le blan Coucou. (A. l. Mondes, Éd.) La tradition , XVIIème .
11. M.El-Shamy, H. (2004). Types of the folktale in the Arabic Word: A demographically Oriented tale-type index. Indiana: Indiana University Press, Bloomington and Indianapolis.
12. Morgan, L. H. (1985). La société archaique. (H. JAOUICHE, Trad.) Paris: Anthropos.
13. Prince, J. D. (1903, Juillet-Août). Le bouc émissaire chez les babyloniens. Journal Asiatique.

14. Tassin, C. (2012). Paysages végétaux du domaine méditérranéen. Marseille: IRD Editions.

15. *Tervarent, G. D. (1997). Atributs et symboles dans l'art profane- Dictionnaire d'un langage perdu (1450-1600). Genève: Librairie Droz S.A.*